

الفصل الحادي عشر

خاتمة

تعريفات جديدة

تقضى هذا الكتاب القضايا المتعلقة بالإجابة عن سؤاله: ما الإبادة الجماعية؟ وشدّدت في البداية أنه لا يوجد جواب صحيح واحد. الإبادة الجماعية فئة وضعها الباحثون - المحامون والسياسيون والمعلّقون والناشطون - حول الظواهر التاريخية الاجتماعية، وللإجابة عن السؤال نحتاج إلى أن ننتج أكثر المفاهيم العامة ترابطاً، ما سيساعدنا على فهم المعنى من عرض الأحداث والأفكار التي تشكل حقل الدراسة هذا.

بدأ الكتاب حيث بدأت الإبادة الجماعية، مع مفهوم رفائيل لمكن بذاته، وقد رأيت جزءاً من مهمته لاستعادة عناصر الإبادة الجماعية التي كانت ضائعة في الاتفاقية، وحتى فيما بعد في مناظرات أكاديمية لاحقة، فقدّم الكتاب إطاراً حديثاً يجري بثبات إلى ما يلي نقطة بداية لممكن، بمحاولته دمج بعض أفضل الأفكار لباحثين لاحقين، ويبدو من الملائم أن نختم هذه المناقشة بتقديم بعض التعاريف الملخصة التي يستطيع القراء لاحقاً مقارنتها مع تلك التي مرّت عليهم في الجزء الأول من الكتاب (انظر المربع 11.1).

النقطة الوحيدة التي أبتعد فيها عن التعريفات السابقة كلها هي أنني أعرف الإبادة الجماعية بمعنى مزدوج، فالإبادة الجماعية نوع من النزاع الاجتماعي غير المتكافئ بين مجموعتين من الفاعلين، التي يتم تحديدها بصورة رئيسة من خلال نوع العمل المنفذ من جانب الطرف صاحب النفوذ الأقوى، ولهذا السبب نحتاج إلى تعريف ذي جانبين يحدد الإبادة الجماعية بوصفها نزاعاً، وعملاً يتسم بطابع الإبادة الجماعية؛ بكونه نوع العمل الذي يثير ذاك النزاع. أضع الإبادة الجماعية بوصفها نزاعاً أولاً؛ لأنها الإطار الأكبر الذي لا يتضمن الإبادة الجماعية كعملٍ وحسب، بل مقاومة الإبادة الجماعية من جانب المستهدفين والعمل من جانب أطراف ثالثة.

الإطار 11.1 تعريفات جديدة

Genocide الإبادة الجماعية

أحد أشكال النزاع أو الحرب الاجتماعية العنيفة بين منظمات قوات مسلحة تهدف لتدمير المجموعات المدنية الاجتماعية، والمجموعات تلك، وفاعلون آخرون يقاومون هذا التدمير.

عمل إبادة Genocidal action

عمل تقوم به منظمات القوات المسلحة بمعاملة المجموعات المدنية الاجتماعية على أنها العدو، وتهدف لتدمير قوتها الاجتماعية الحقيقية أو المفترضة، من خلال وسائل القتل والعنف والإكراه ضد الأفراد الذين يعدونهم أفراداً من المجموعات.

Genocide إبادة جماعية

سلسلة أحداث على نطاق واسع، تتضمن عدداً هائلاً من الضحايا.

Genocidal violence **عنف إباضي جماعي**

نزاع محدود أو متمركز بخصوص الإبادة الجماعية، على نطاق ضيق جداً، أو بعدد ضئيل جداً من الضحايا كي يُعدَّ إبادةً جماعيةً.

ملاحظات: يكمن الفرق بين الإبادة الجماعية وعنف الإبادة الجماعية في مسألة الظروف التصويرية والتحليلية المواتية؛ ولذلك لا يمكن منحها مؤشراتٍ عدديةً دقيقةً، تعني كلمة الضحايا، القتل إثر جميع أنواع العنف والقسر، وليس الوفيات ببساطة.

الشيء الجديد الآخر هو أنني أميز الإبادة الجماعية بوضوح على أنها من أصناف النزاع والبطش المختلفة عن الإبادات الجماعية كأحداث، وأقدم تعريفات للإبادة الجماعية وعنف الإبادة الجماعية كطرق تشير إلى مقاييس مختلفة من النزاع المتعلق بالإبادة الجماعية.

تتضمن هذه التعريفات عشر تقدمات مهمة:

أولاً: الاعتراف بعدم تكافؤ القوى الأساسية بين العوامل المسلحة الجماعية، والفئات الاجتماعية المدنية، غير أنَّ هذه التعريفات ترفض أن تعامل عدم المساواة هذا ككل، وبهذا فهي غير قادرة على معالجتها، إنها تعرف الإبادة الجماعية بطريقة تميز فيها إمكانات المجموعات المستهدفة للمقاومة والقوة المضادة، ومن خلال الإشارة إلى فاعلين آخرين توضح هذه التعريفات أن الإبادة الجماعية تتضمن أطرافاً ثالثة بصورة نموذجية، وأن معلوماتها تهمنا، هذا انفصال جذري مع الأفكار ذات الجانب الواحد.

ثانيًا: انتقد الفكرة القائلة أنَّ الإبادة الجماعية استثنائية خارج النطاق العادي للظواهر الاجتماعية، وأرجع نحو عدَّ كيف أنها مرتبطة بظواهر اعتيادية أكثر للنزاع الاجتماعي والحرب، التعريف الرئيس حديث من حيث تحديد أنَّ الإبادة الجماعية بوصفها نزاعًا منظمًا وعنيفًا، تشكّل الحرب (بالرغم أنَّ لم يكن تنبأً بجذلي ضمنيًا) حتى الإبادة الجماعية في وقت السلم تعدُّ شكلاً من أشكال الحرب ضد الفئات الاجتماعية، يطرح لنا هذا التحديد سؤالاً ثانويًا تجريبيًا، ألا وهو ما إذا كانت الإبادة الجماعية تحل في سياق حرب تقليدية أكثر عمومية أم لا. رأيي أنَّ الإبادة الجماعية بصورة نموذجية ظاهرة هجينة، تُدمج مع حروب أخرى، لكنني لم أبين هذا القول في التعريف؛ لأن هذه الصلات في بعض الحالات تكون غائبةً أو واهنةً.

ثالثًا: يقوم تعريفي بإعادة هدفٍ لم يكن الأصلي في إقامة مفهوم فنّوي شامل يغطي مختلف الأفعال العنيفة والقسرية المتعددة المرتكبة بحق المجموعات، ورغم أنني أعرفّ العمل المتسم بطابع الإبادة الجماعية من خلال هدف تدمير مجموعة ما، يبقى هذا التعريف مختلفًا عن معظم التعريفات التي طُرحت، لا يُعرّف العمل المتسم بطابع الإبادة الجماعية على أنه أنواع معينة من الأعمال وحسب، (كما يفترض أولئك الذين يصبون تركيزهم على القتل)، بل بوصفه صنفًا عامًّا من العمل الاجتماعي المتسم بمجموعة من الأهداف الاجتماعية المدمرة مع وسائل عنيفة وقسرية، وهذا النوع من العمل مرتبط بالصنف الخاص للنزاع الاجتماعي العنيف الذي

يتمّ وضعه بهذه الطريقة، يهدف التعريف إلى إعادة مفهوم الإبادة الجماعية كفئة عامة، قادرة على أن تخدم مفهوم إطار عمل لفهم العنف المستهدف ضد التجمعات السكانية المدنية، ويعارض تعريفي الاقتراحات بمضاعفة المفاهيم في هذا المجال، واستعمال مفاهيم أخرى كهياكل عمل.

رابعاً: من خلال تعيين مراكز مرتكبي الجريمة على أنهم منظمات قوى مسلحة، أقترح الجمع بين مساعي القوى العامة (ليست سياسية وحسب) والقوات المسلحة المنظمة القادرة على إحداث العنف، يميز هذا الاتحاد الدول والأحزاب والقوات المسلحة وأشباه الدول والحركات المسلحة، والتجمعات المستوطنة والشيوعية وغيرها التي تقوم بارتكاب الإبادة الجماعية، لكن منظمات القوى المسلحة لا تحتاج إلى أن تكون مؤسسات رسمية قائمة، في إحدى نهايات الطيف تكون مرتجلة نسبياً كما في حالة منظمي برامج و«أعمال الشغب العرقية المميتة»¹، وعلاوةً على ذلك عن طريق وصف مراكز مرتكبي الجرائم بصفاتها منظمات، لا أقصد أن أقترح أنها تعتمد حصرياً على الأسلحة والمسلحين لتنفيذ الإبادة الجماعية، فهي تقوم أيضاً بتعبئة الأفراد غير المسلحين، لكن قدرتها على بذل القوة المسلحة هي المفتاح لقدرتها على إكراه التجمعات السكانية وترهيبها.

خامساً: إن المستهدفين بالإبادة الجماعية هي المجموعات الاجتماعية المدنية، وسمتهم المحددة العامة ليست نطاقاً من السمات

الاجتماعية (العِرْق أو الطبقة أو القومية أو الإثنية أو الدين أو السياسة أو جنس الأفراد) إنما هي طابعها غير المسلح، ورغم أن طابع المدنية للمجموعات المستهدفة كان واضحاً في عملٍ لمكن، ومضمراً في مناظرة الإبادة الجماعية، لكنها المرة الأولى التي يتم التركيز عليه بوصفه عنصراً للتعريف، وتعزز هذه الصياغة الإجماع المؤخر على أن الفئات الاجتماعية كلها المهددة بالتدمير يجب أن ينظر إليها ضمن نطاق الإبادة الجماعية، وتطرح سؤال ما إذا كانت المجموعات التي تتم مهاجمتها تعد مجموعات واعية لذاتها، إضافة إلى تحديدها على أنها مجموعات من جانب مرتكبي الجريمة.

سادساً: توظف هذه التعريفات بصورة متعمدة صيغة الجمع لمنظمة القوات المسلحة والفئات الاجتماعية، ولا تفترض تفرد مراكز الجناة أو المجموعات المستهدفة، يقود هذا الافتراض للفكرة المصطنعة التي تأخذ في الحسبان الحملات ذات طابع الإبادة الجماعية المتزامنة والمترابطة من قبل المعتدين ذاتهم كسلسلة من إبادات جماعية مختلفة، ويميز التعريف أن حدث الإبادة الجماعية قد يكون له معتدون و/أو أهداف متعددون.

سابعاً: لا يتم تقليص هدف تدمير الفئات الاجتماعية إلى قتل أفرادها، بل يُفهم على أنه تدمير لقوى المجموعات بكل من المعنى الاقتصادي والسياسي والثقافي، يشار إلى قتل الأفراد وإيذائهم وتجريدتهم من ملكياتهم وترهيبهم على أنها مجرد وسائل

متنوعة، وليست المغزى، لتدمير المجموعة من وجهة نظر مرتكبي الإبادة الجماعية، وي طرح هذا التعريف سؤالاً وهو ما إذا كانت قوة المجموعة التي ستدمر حقيقية أم وهمية، وبمعنى آخر ما إذا كانت أفكار المعتدين عن قوة الأهداف الاجتماعية تتوافق مع قوتهم وقوة مراقبيهم، بما أن طبيعة العملية بصورة أساسية هي ذاتها، بغض النظر عن جواب هذا السؤال، من الواضح أن تعريفات المعتدين تهمنا، لكن بما أن الإبادة الجماعية ليست عملية من طرف واحد، فذلك يهمننا تعريف الضحايا والآخرين، وبهذا المعنى يكون هذا تعريفاً شاملاً.

ثامناً: تؤكد التعريفات أن الأفراد الذين ترتكب ضدهم أعمال الإبادة الجماعية هم الذين تنظر إليهم منظمات القوات المسلحة بوصفهم أعضاء للمجموعات المستهدفة، ويميز هذا أن أولئك الذين تتم مهاجمتهم قد ينظرون إلى أنفسهم كأعضاء من مجموعة معينة، أو قد لا يفعلون ذلك. وهكذا، فإن التعريف يغطي إمكانات التعريفات الإيديولوجية الوهمية كلها التي تنسب إلى الناس عضويات لمجموعات هم أنفسهم لا يدركونها، وأعمالاً اعتبارية في أثناء الإبادة الجماعية تسبب إيذاء الناس الذين لا يتوافقون مع هذه التمثيلات الإيديولوجية.

تاسعاً: تحدد التعريفات أن الشرط المسبق لتدمير المجموعات هو أن يتم تحديدها على أنها العدو، وتشير أساساً إلى المعنى العسكري لكلمة العدو، ويتم فهم التدمير على أنه عنيف أصلاً،

لكن يتم تمييزه على أنه يشمل نطاقاً من تشكيلات القوة، ويتم تلخيصه بالقتل والعنف والإكراه، ضد الأفراد، ويشير ترتيب هذه المصطلحات إلى وجود تمثيل تدريجي للعنف، لكن إدراجهم المتساوي يترك لنا - كسؤال تجريبي - اتحاداتهم المعينة في حالات خاصة.

عاشراً: يميز التعريفان الأولان الأساسيان الإبادة الجماعية من خلال طابع العمل والنزاع اللذين تشتمل عليهما، بدلاً من نتيجة معينة، ومع ذلك فإن التعريفين الثالث والرابع يسلمان بأن حلقات سلسلة الإبادة الجماعية تكون عامة مميزة بمقياسها، الذي يكون فيه لعدد الضحايا (المهجرون والمغتصبون، إلخ، بالإضافة إلى القتلى) دلالات مهمة؛ لذا أعرفّ الإبادات الجماعية على أنها سلسلات ذات مقاييس طويلة، وأرقام كبيرة من الضحايا، ومن الناحية الأخرى أقدم فكرة العنف المتسم بطابع الإبادة الجماعية كمصطلح لأصف الحلقات الأكثر تحديداً، تركز هذه الفكرة على فكرة كوبر عن مذبحه الإبادة الجماعية، لكنها تتميز أنها ليست مجرد قتل جماعي بإمكانه أن يحدث بأشكال محدودة، ثمة أيضاً اغتصابات جماعية محلية، وعمليات تهجير جماعية وغيرها، ويعدّ العنف المتسم بطابع الإبادة الجماعية مصطلحاً عاماً يشمل هذه الظواهر كلها، وقد يكون بصورة خاصة مفيداً من أجل تحليل الأنماط التي غالباً ما تكون فوضوية لعمل الإبادة الجماعية ونزاعها في القرن الواحد والعشرين².

بينما تركز هذه التعريفات على أفكارٍ لمُكن، وتشتق عوامل للفهم من الاتفاقية، ولاحقاً من السلطات، فإنها تضع الإبادة الجماعية ضمن إطارٍ اجتماعي لفهم العمل والنزاع، ويتم تقديمها هنا لا بمعنى وضع القانون، بل بوضع نموذج أو نوع مثالي يكون مفيداً في الفهم، ويصوغ توماس بيرجر في بحثه في المنهجية الاجتماعية «تكون مفسرةً بصورة ملائمة وما يبدو على أنه تعريف في الحقيقة هو وصف للنموذج»³، والهدف النظري الأكثر عموماً لهذه النماذج هو «أن يخدم بوصفه بديلاً لقطاع ما من الواقع التجريبي...، وأن يكون مستخدماً للتجارب الوهمية...، أو للنقاط الثابتة للمراجع في الدراسات المقارنة»⁴، أمل أن الإطار الذي وضعته في هذا الكتاب سيساعد تلاميذ الإبادة الجماعية على تنفيذ التحقيقات التجريبية لقضايا خاصة، ودراسات تاريخية دولية، ومقارنة عالمية، وكلاهما ضروري إذا أردنا أن يستمر فهمنا للإبادة الجماعية بالتقدم.

.....